بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

« وبعد »

فلست أدرى سر حفاوتى بالشعر القديم ، والانعطاف إليه قراءة ، وتأملا ، واستيعابا !! ألأنه جاء يلمس من النفس البشرية أوتارها ، ويحرك دفائنها على الرغم من الكلمة الغضة ، والصورة الفطرية ، والمعنى المألوف ، والخيال القريب ، أم هى عبقرية الأداء فيه ، بعد أن غدت ساحة الشعر العربى المعاصر كلأ استباح حماه نفر من الأدعياء ، وتطفل على مأدبته رهط أبى عليهم التشامخ إلا أن يقفوا من أمراء البيان وفرسان الكلام موقف الند ، ويشهد الله أن هذا القبيل من « المتشاعرين » يعدو على حرمة الفن باسم التجديد آنا ، والمواكبة أو المعاصرة آنية ، يتذرعون بها ابتغاء التسلل — فى غفوة من الزمن — إلى محاريب الفن ، وتثبيت أقدامهم فيه . .

قد يكون كلا الأمرين مدعاة إلى تفرد الشعر العربى القديم بالنبض الملهم والروح الآسر ، مما حفزنى إلى استمرار قراءته ، وإدامة النظر فيه ، حتى تسلط على الولع به أو كاد .

والواقع أننى عشت آفاق الشعر العربى من القديم إلى الحديث ؛ وطرت معه فى سابحه على جناحيه الرفافين ؛ ولكننى ما زلت مفتونا بالقديم منه ؛ أجدد له البيعة ، وكأنما الشعر القديم — فى تقديرى — هو المنارة الهادية التى انبثقت أضواؤها القوية الكاشفة لتخترق غياهب العصور والحقب ، وترفع سدول الأجيال المتعاقبة ، جيلا بعد جيل ، فإذا الشعر العربى المعاصر يعيش فى هذا النور الغامر ، يقبس منه سرحياته ؛ وأمارة الوجود فيه . .

وقلب — إن شئت — ديوانا من دواوين الشعر العربي الرصين ، جادت به القريحة المعاصرة تر أطيافا من تلك المنارة ترف على الديوان إن فى صورته أو مضمونه ، أو كليهما :

ويخيل إلى أن القدامى من الشعراء وقفوا على هذه الحقيقة ، وعالنوا بها الحياة ، وإلا ففيم قول « عنترة » الذائع .

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم!!

وقول « حسان » المشهور :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

ألست تراهما نظرا إلى هذه القضية بمد البصر من أزمان موغلة فى القدم ، ضاربة فى أعماق التاريخ ؟

ولا يعنى هذا — بحال — أننا نهدر منطق العصر ، ونلغى اعتبارات أو حيثيات حاكمها أنامل الزمن ، وشكلتها أحداثه ؛ فمع اليقين والاعتداد بكل ما يتمخض عنه العصر ، لا يعدو أن يكون ذلك وما يدخل فى نطاقه لمسة يخلعها المعاصر على شعره ، وبصفيها على تصويره ؛ فأما الخمائر الأساسية والركائز المتينة فقد كفاها مئونته جيل سالف من الشعراء الماضين ، خاض مخاضات الحياة ، وتنفس معانيها ما دعته إليها المواقف ، وحركته نحوها المواجد .

ولا غرو فى ذلك ولا غرابة ... وربما كان من الأدلة على صدقها — إن أعوزها الدليل — أن لفتات النقاد القدامى فطنت إلى أبعادها وجوانبها فلم تخطئها إذ نبهت إليها ، وإنك لترى قوائم التشبيه عند العرب فتدرك كيف كانوا يصدرون فى معانيهم ، وما إن تراهم يذكرون مع ذلك أن على الشاعر أن يمزج بين هذه المعانى فى التشبيهات ، لتكثر شواهدها ، ويتأكد حسنها ، ويتوقى الاقتصار على ذكر هذه المعانى التى يغير عليها دون

الإبداع فيها ، والتلطف لها ، لئلا تكون كالشيء المعاد المملول » حتى تستيقن مما نقول .

وما بنا — الآن — حاجة إلى أن نذهب فى تقويم تلك اللفتة الناقدة ، فحسبنا من ذكرها ماكان عليه نقادنا القدامى من حس نقدى حيال معنى سيطر على وعيهم ، أشبه ما يكون بتطلعاتنا إلى « الشعر القديم » على أنه « الأنموذج » و« المثل » .

على أية حال قرأت « الشعر القديم » أو جله فى أناة وريث ، قراءتى للشعر المعاصر وأنماطه المتعددة ، ورغبت إلى الوقفة عند أساطين المعاصرين من أمثال « شوقى » و « حافظ » وسواهما أن أفل هذا الشوق بالقديم ، أو أخفف من وطأة تلك الرغبة العارمة فى العودة إليه ... وعبثا حاولت... فقد استطاع « القديم » أن يطارد هذه الأفكار التى تعتادنى بماله من صولة وسلطان ، وربما كان سبب ذلك ما يلى .

(ا) أن العربى القديم وقع على المادة « الخام » والمعنى الأنف ؛ والصورة البكر ، وليس من شك فى أن الوقوع على مادة « الشعر » ومحتواه — على تلك المثابة — يعنى احتواء «عالم الشعر» بما يميل إليه وينزع ، وفى ذلك ما يدل على استفراغ الجهد ، وبذل الطاقة ، ومواكبة الشعر للحياة بما تشتمل عليه من رؤى ودوافع وغايات ... والموازنة بين هذا الدور الذى اضطلع به الشعر القديم ، وما يؤديه الشعر المعاصر على مسرح الحياة تسلم للشعر القديم — ولا مراء — زمام المبادرة والسبق ، لا المبادرة الزمنية والسبق الوقتى فحسب بل المبادرة والسبق بكل ما يندرج تحت لوائهما من معنى ، ويحتشد تحت رايتهما من خواطر .

(ب) وأن الشعر المعاصر إذا واتته فى بعض صوره الصنعة الدقيقة حينا ، الطريفة أحيانا فذلك رهن بالمادة الخام التى تشكله وهل يتصور أن تكون صنعة بدون مادة ؟ أو جودة وإبداع من فراغ أو عدم ؟ .

ولندع ما يكتنف القضيتين معاً من ملابسات أعانت « الشعر القديم » لتوه ، على حين خذلت تلك الملابسات « الشعر المعاصر » بعد أن تقدم الزمن وتخلت الكلمة الشاعرة عن مكانها ، واحتلت منزلتها كلمات خاوية متخاذلة ، فليس وكدنا من ذلك أن نضع الشعر القديم فى كفة ، والمعاصر فى كفة أخرى بغية المفاضلة بينهما فى كل ما أبدع فيه هذا الشعر أو ذاك ، وإلا كان وارداً جملة اعتبارات منها « دور « المعاصرة » فى الشعر ، وهل تقاس « العصرية » الآن انفتاحة وحضارة وازدهارا بمقومات الحياة العربية فى العصر الجاهلى أو عصر صدر الإسلام مثلا إذا صح أن نوازن بين الشعر المعاصر ، وبين هذه الحقبة أو تلك من عمر التاريخ الأدبى ؟ .

هذه التساؤلات التى نطرحها تقدم فى حقيقتها بعداً من أبعاد الإعجاب بالشعر القديم فى جملته ... وفى الوقت ذاته لاتطرح عن الشعر المعاصر مزاياه ، فللشعر المعاصر من رجالاته الشوامخ من وهبوا الحياة المعاصرة الإبداع والخلود ، كما أن له من روائع الصور ، وخلابة الأسر ما يعانق القيم ، وينساب بين الحنايا ، ويتمازج بالمشاعر ، غير أنها العوامل التى تنهض بتفسير كلفى بالشعر القديم ، لا أملك إلا الإبانة عنها والإفصاح .

ولعله من الجدير بالذكر أن الإعجاب بالشعر القديم ، وإيثاره على سواه فى مقام « الموازنة » أو « المفاضلة » لا يدفع إلى الإغضاء على ما فيه من هنات ، أو مآخذ انسياقاً مع عاطفة « الإعجاب » فمثل هذا الموقف يغض من قيمة الدراسة ، فضلا عما فيه من « مغالطة » هتك أستارها العربى الجاهلى نفسه فى لمساته النقدية الذكية ، حين رأى أن رسالة « الشعر » قدسية مصونة وما لم يكشف « النقد » عن وجوه القصور ، ومواطن الخلل فى الشعر ، أصبح الشعر هذراً من القول وأصبح « النقد » لغطا أو تخاملا .

على هدى من هذه النظرة مضيت فى دراسة لبعض القصائد . انتخبتها من عيون الشعر فى القديم ... فى العصر الجاهلى ، وفى العصر الإسلامى والأموى .

كان منظورى إلى تلك القصائد منظورا شاملا ، بمعنى أن النظرة إليها استغرقتها من وجهتين مزدوجتين . إحداهما تتمثل فى الرجوع إلى معاجم اللغة قديمها وحديثها تستشيرها فى هذه اللفظة أو تلك ، والاستئناس بالشواهد العربية من الشعر ، بغية تجسيم المعنى بالنسبة إلى بعض هذه الألفاظ ، مما قد يظل فى ضبابية إن أميط اللثام عنه وحده ، ولذا لم يكن بد من ترطيب هذا المعنى بأبيات من الشعر العربى حتى تدب فى المعنى أنفاس الحياة . . وهذه النظرة قد تكون عليها شفة «التقليدية» ومسحتها ، ولكن لا معدى عنها ولا فكاك منها ، طالما تعاملنا مع كلمات ترقد على متون الصحف ، على أن ربط هذه الألفاظ أو بعضها بآى من القرآن الكريم يسمو بالكلمة ، ويهيىء لها عرشا وثيراً ترفل فى سمائه بعيدة عن السقوط والمهاوى .

والأخرى : الاستعانة بالدراسة التحليلية ، والاتكاء فيها على بعض النظرات مما عسى أن يكون مفتاحا إلى العالم الشعرى فى القصيدة ، وذلك كدراسة الحالة النفسية للشاعر من خلال موسيقاه التى أفرغ فى لحنها كلماته ، وموسق فى إطارها معانيه ، أو لعله يصيب من القصيدة مقطعا ، كتفجير بعض قضايا نقدية على رحم ماسة بالقصيدة أو فيما يتصل بها ، وقد نحاول — مع ذلك — أن نطل إطلالة سريعة على المعجم اللغوى عند بعض الشعراء ، نفاذا منها إلى معايشة العالم الداخلى الذى كان الشاعر مشدوداً إليه فى أثناء تجربته الشعرية ومعاناته إياها ، وتلك هى النظرة التى تنبو عن « التقليد » لتلتحم بالرؤية المستحدثة ، ومع الإيمان بجدوى هذه الرؤية وفائدتها فى تمثل العديد من أقطار القصيدة وقائلها — وهى أمور لامحيص عنها — يبقى أن نلفت إلى أن سبيلنا فى استثمارها سبيل وسط لا إفراط فيها أو تفريط ، وبعبارة أوضح هى السبيل التى تسهم فى ترقية « القصيدة » وإذكاء روح النبض فيها لا أكثر ، بعيداً عن الشطط أو الإيغال ، فما كانت الدراسة النفسية وحدها سلما ترقى على معراجه أو مرقاه القصيدة ، كذلك لا تتأتى معايشة العمل الأدبى واستبطانه واكتناه أسراره لمجرد الوقوف على المعنى الغفل . أو تناول المفردات تناولا لغويا وكفى .

ومن خلال تينك النظرتين تتجلى عبقرية « الفن » فى الشعر القديم ، وهذة القصائد التى نماذجت بها إن تكن دليلالذلك وتطبيقا عليه فهى وشل من بحر ، وشعاع من شمس ، ففى الشعر العربى القديم ، وفى عصورازدهاره وعهود أوجه ، بل وفى الشعر المعاصر كذلك ما يضوىء جنبات هذه الصورة ويبرز قسماتها ...

وقفت بتلك الدراسة عند حدود الشعر الأموى حتى لا تثرهل ، كما قصدت إلى شعراء متفاوتى المكانة ، متباينى المنزلة ، ففيهم النابه وفيهم المغمور ، وفيهم العف ، وبينهم من أثير حوله اللغط والصخب وإذا كان ذلك شأن الشعراء فهو حظ أشعارهم ، فبين القصائد ما له صيت طائر وفيها — إلى ذلك — قصائد رجراجة كالزئبق ما إن تبقى أمام نظرة نقدية فى موضع حتى تصادف نظرة نقدية أخرى تدفعها عن موضعها ، وهى القصائد التى رآها بعض الباحثين « منحولة » فى كتب التاريخ الأدبى بمعنى أصرح :

قدر الاختيار — إذن — قدر مشترك بين الشعر والشعراء فى نطاق القصائد المنتخبة من العصر الجاهلى والإسلامى من حيث هذا المعنى ، بالإضافة إلى أن ملامح القصائد بالنسبة للاختيار ذاته — تتفق من ناحية الشكل ، وذلك حيث وقع الاختيار — فيما يتعلق بكل عصر من هذين — على قصيدة تنفست عنها النسائم الندية التى هبت على فجر الحياة الأدبية فيه ، وأخرى بعد أن أسنت القصيدة بتقدم العصر وجيشان الحياة فيه ، واضطراب مسرحها بالأحداث .

وإذا كانت سنة الحياة ومنطق الوجود فى كل عصر تحتم أن يكون الأعلام إلى جانب المغمورين ، هؤلاء — لسبب أو لآخر — تنصفهم الحياة ، وأولئك لاينالون منها سوى الجفاف أو النطاف ، وإذا صح للتاريخ أن يستحيل وترا منغوماً فى حياة بعض الأحياء يرسل الأصداء المرنة عبر مراحله المتعاقبة على مدار الأيام ، بينما يقف من بعضهم الآخر موقف العابس المتجهم لسبب أو لآخر كذلك... إذا كانت هذه هى الحياة فإن اختيارنا لتلك النماذج من الشعر العربى القديم جاء بسبيل يكشف عن أمارات الحظوظ فى الحياة الأدبية

تتجسد فى الشاعر و نبضه على سواء .. ولعلى بهذا التناول الذى أقدم على أساس منه قصائد من قيثارة الشعر العربى — وهى قصائد لم أسبق إليها فيما أعلم — أكون قد أسهمت بجهد متواضع فى توطيد صرح التراث العربى ، وتقريبه إلى الآذان فى رسوم جزئية متآلفة تتسق فى النهاية لتكون إطاراً متكاملا ، أو فى لوحة كلية استمدت حياتها من الأصباغ الفنية التى هدهدت من شموس القصيدة العربية ، واستغلاق معانيها على بعض الأذهان فى ثوب قشيب ، نرجو أن يلبس الشعر القديم أفوافه ،وأن تشدو به —للدنيا — قيثارته الحالمة ، فتعيد بذلك لحنا أغن ، ومتعة فنية نضرت وجه الحياة فى حقبة زاهية ، نود للتاريخ الأدبى المعاصر أن يبسم صوبها ، وأن يعد نفسه لقطع مسافة الخلف بينه وبينها فى عالم الكلمة الصادقة التى استجابت للحياة آنذاك معتصمة بكل ما تملك من دفق وقوة وإيحاء ..

وفى اتجاه الهمم نحو هذه الغاية من الباحثين والدارسين ما يذلل العقاب والصعاب .. وعلى الله قصد السبيل .

دكتور فتحى محمد أبو عيسى

الثانى من فبراير (١٩٨٠)